

طرق الجدل وأساليب الحجج عند الأمير للأخر - (قراءة في فكر الأمير عبد القادر)

الحاج بنيرد⁽¹⁾

مقدمة

كثيرة هي الملتقيات والدّراسات التي تعرّضت لحياة الأمير عبد القادر الجزائري ؛ سواء من حيث سيرته السّيفيّة، أو من حيث مسيرته القلميّة، وهو بلا شكّ من أبرز شخصيّات القرن التّاسع عشر، ولا تزال شخصيّته تُثير الجدل وتُسيل الجبر ؛ بين معجب غالٍ وطاعن مغرض، منذ كتاب (حياة الأمير عبد القادر)¹ للإنجليزي " تشرشل" من زمانه إلى يوم النّاس هذا، فاهتمّوا بسيرته ومراحل كفاحه، وجمّع ديوانه الشّعري، وخصّصت ملتقيات ودراسات لجهاده وفكره وشعره، بإنتاج علميّ غزير يتفاوت من حيث الجودة والجدّة في الطرح، وربّما تعرّضت شخصيته للتّعظيم الشّديد أو للطعن المقيت؛ تبعاً لأهواء الدّارسين وميولاتهم الفكرية والمعرفيّة، وحتىّ الجهويّة²، أو ربّما مشى آخرون نحو نزوة التّأليف دون رعايةٍ لمقام البحث والتّنقيب، فكان عملهم إعادةً لما ذُكر، وفي أحسن الأحوال جمعاً لما تفرّق بين بطون المصادر والمراجع، ولكنّي لم أقف على من حاول التّأصيل والتّأثيل لفكر الأمير، ووضع منهجه الفكريّ والفهميّ تحت المجهر، وتحديد منطلقاته العقلية والاجتهادية في مواجهة التّحديات الكبيرة التي كانت تحيط به، ولا شكّ أنّ هذا

⁽¹⁾ Université de Mouloud Mammeri, 15000, Tizi-Ouzou, Algérie.

¹ ينظر : شارل هنري تشرشل (1982م). حياة الأمير عبد القادر. (ط. 2). ترجمه وقدم له وعلّق عليه الدكتور أبو القاسم سعد الله، الجزائر : الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع، مقدمة الكتاب.

² ينظر : دراسة لبعض مغالطات المسارد التّاريخية وتناقضاتها، بشرى خيريك (2012)، كانون الثّاني/حزيران). تحفة الزّائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر أنموذجاً للدراسة، مجلّة دراسات تاريخية، (117، 118)، 420. دمشق.

الجانب أخذ قسطا كبيرا من اهتمامات الأمير وانشغالاته وهمومه، بل كان هذا الهاجس أخطر وأعمق في نفس الأمير من المعارك الحربيّة التي خاضها ضدّ خصومه وأعدائه، فلأنّ تجد لك حيّزا في وسط مليء بالصراعات الفكرية والنفسية أصعب بكثير من معاناة الحروب، ولا أدلّ على ذلك أنّ الأمير وإن توقّفت معاركه استمرّت سجلّاته الفقهية والفكرية مع خصومه من أبناء جلدته، ومع أعدائه الذين لم يوقفهم الإعجاب بشخصية الأمير من الدخول معه في معارك فكرية ووجودية ودينية وفلسفية.

ومن هذا المنطلق فكّرت في البحث عن الجوانب الخفية والمرجعيات الفكرية التي صنعت من الأمير شخصية تاريخية احترامها الأعداء قبل الأصدقاء، فكيف له أن يفهم خصومه؟ وكيف له أن يصمد فكريا أمام ذلك المدّ الغربيّ الكثيف؟ وما هي طرق الجدال والإفحام عند الأمير لمواجهة الشبهات التي ما فتئ أعداؤه يلقونها على حضرته ومسامعه؟ هذه الأسئلة وغيرها نُحاول الإجابة عنها، وذلك بنظرة تأصيلية أحاول بها جمع شتات أفكاره وردوده على المثقفين الفرنسيين بوجه خاصّ، على نسق تأيليّ متميز.

وقد حاولت تأصيلها فيما يلي :

- الاحتجاج بالطّبع، فهناك حدّ طّبعي يشترك فيه البشر جميعا لا يمكن إنكاره.
- العُزف العربيّ، وهو ما تواضع المجتمع عليه، وجرى به انتظام حياتهم، فلا يمكن إنكاره أيضاً و إلا اضطربت حياتهم، وينبغي اعتباره رداً وقبولاً في اعتماد ما تعارفوا عليه، وأيضاً يجب عدّه مرجعا فكرياً وحُكما موضوعياً في حال الخلاف والتّزاع.
- الاحتجاج بكتب المخالفين، كالاستشهاد بالتّوراة والإنجيل لإقحام الفرنسيين لأنّ ذلك من مرجعيّاتهم، فلا يمكنهم إنكار ما تقرّر فيهما.
- وربّما احتجّ في كثيرٍ من الأحيان بنصوص الشّرع من الكتاب والسّنّة، لأنّها مرجعيّته الأصيلّة، ولا مطعن لأعدائه عليه في ذلك. وسأحاول بسط هذه القضايا بمحورين هامّين تنتظم فيهما المسائل والقضايا التي أريد الخوض فيها، وأعني استمداد الأمير، والأثر العمليّ الفكريّ لذلك.

أساليب الحجج عند الأمير

العقل

قصور العقل عن إدراك الحقائق : يرى الأمير أنّ العقل لوحده قاصرٌ عن إدراك الحقيقة المطلقة، لابدّ من ضميمة أخرى لتكتمل الرؤية ؛ وهي ضميمة الهداية والتوفيق، كمثل العين الباصرة لا يمكنها إدراك الأشياء إلّا عند طلوع أنوار الشّمس ونحوها، وهكذا العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأٍ إلّا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى³، وهذا يُميّز الأمير بين مرتبتين من العلوم ؛ علومٌ عقليةٌ من غير تقليدٍ ولا سماع، وعلومٌ شرعيةٌ عن طريق الكتب السماوية، وهي علومٌ—بحسب طرح الأمير—لا تُخالف العقل بل تُكمله، وهو يدعو إلى عدم إنكار ذلك، فالإكتفاء بالعلم العقلي وحده يؤدي إلى الغرور، وهو بدوره يؤدي إلى المكابرة والتعصب، وهو ممقوت في أعراف كلّ الإنسانية، والأمير يُخاطب علماء أوربا بذلك، ويدعوهم إلى التسامح والأخوة والتواضع، ونبذ التعصب ممّا تتفق عليه كلّ الأعراف البشرية، لأنّ "الدين واحد باتفاق الأنبياء، وإنّما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية"⁴. وبذلك يتدرّج الأمير في عرض أفكاره بتسلسل منطقيّ مراعاةً لمقتضى الحال، وبالتالي جاء على نسق الاستدلال المعرفي عند العلماء المسلمين ؛ أي الاعتماد على العقل والنقل معا لإدراك الحقيقة، لأنّ العقل وحده قاصرٌ في بعض المواقف، والنقل أيضا لا يحقق أحيانا ما ينشده الإنسان إذا انتابته الشكوك، فلا يطمئن إلى أحكامه إلّا إذا أزره العقل فيها⁵.

التّمثيل للعقل بالطّبيعيّات

يسعى الأمير جاهداً لتقريب المعاني الغامضة والمجرّدة باستعمال المرئي والملموس، ومنها ماهية العقل التي يرى بأنّها غريزة كامنة ولا تظهر إلى الوجود إلّا إذا جرى سببٌ يُخرجها من القوة إلى الفعل⁶ ؛ وتمثيله لتلك الماهية بالماء الكامن في الأرض وبالطّبيعة، فيربط بين العلم

³ وينظر : سليمان عشراطي، (2011م)، الأمير عبد القادر المفكّر. (ط. 1)، المرجع السابق، ص. 36، الجزائر، وهران : دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ص. 197.

⁴ الأمير عبد القادر، (1972م). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، (ممدوح حقي، تح. وتقا.). القاهرة : مكتبة الخانجي، صص. 103- 105، وينظر : الأمير عبد القادر المفكّر، صص. 8، 199.

⁵ ينظر : الأمير عبد القادر المفكّر، صص. 199، 200.

⁶ ينظر : الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائري، (1989م). المقرّاض الحادّ لقطع لسان منتقص دين

والعقل والسعي للتعلّم بالحفر لاستخراج الماء، حيث يقول: "... ولفظ العقل موضوعٌ في الحقيقة لتلك الغريزة، وإطلاقه على العلوم مجاز من حيث إثبات ثمرتها، وهذه العلوم كأنها متضمّنة في تلك الغريزة بالخلقة، ولا تظهر إلى الوجود إلا إذا جرى سببٌ يُخرجها، حتّى كأنّ هذه العلوم ليست بشيء واردٍ عليها من خارج، وكأنّها كانت مستكنّة فيها فظهرت، ومثاله الماء في الأرض، فإنّه يظهر بالحفر ويجمع ويتميّز بالحسن، لا بأن يُساق إليه شيء من جديد، وكذلك الدهن في اللّوز، وماء الورد في الورد..."⁷، ويحتجّ أيضا على قصور العقل بحيرته في كثير من المحسوسات فضلاً عن المجرّدات أو الغيبيات، فنراه يمثّل ببعض الظواهر الطبيعيّة التي يُنكرها من لم يجربها، ويحتار العالم الطبيعيّ في تفسيرها؛ فيقول:

"... دانق من الأفيون سمّ قاتل لأنّه يُجمّد الدّم في العروق لقوّة برودته، والعالم بالطبيعيّات يقول: إنّه يُبرّد لأنّه من المبرّدات التي يغلب فيها عنصر الماء والتراب، ومعلومٌ أنّ أرتالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها إلى هذا الحدّ، ولو أخبر طبيبٌ بهذا ولم يُجربّه لقال هذا كذب..."⁸ (1989، ص. 11)

تقسيم العقل إلى نظري وعمليّ والحجاج بذلك: يقسم الأمير العقل إلى نظري وعمليّ تبعاً لأهل الكلام (اعتماداً على السعد التفتازاني (ت792هـ) في شرح المقاصد والغزالي⁹، وهو تقسيم اعتباريّ؛ أي باعتبار المُدركات، "فباعتبار إدراكه للكليات والنسب التي بينها، والحكم عليها بالإيجاب والسلب يُسمّى العقل النظريّ، وباعتبار استنباطها للصناعات الفكرية ممّا ينبغي أن يفعل أو يُترك يُسمّى العقل العمليّ"¹⁰، ثمّ شرع في المفاضلة بينهما، وخلص إلى أنّ العقل النظريّ أشرف من العقل العمليّ، وذكر اثنا عشر وجهاً في أرجحيّته؛ منها تعلّقه بذات الله تعالى¹¹، وأنّ مداخلة الشبهات إلى التّفنّس والوقوع في الإلحاد مردّه إلى الإسراف في استعمال العقل وإساءة استعماله¹²، والأمير إنّما فصل

الإسلام بالباطل والإلحاد. الجزائر: دار الطّاسيلي للنّشر والتّوزيع، صص. 11، 12.
⁷ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. ص. 24، وينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ. صص. 11، 12.

⁸ ينظر: الأمير عبد القادر بن محيي الدّين الجزائريّ. (1989م). المقراض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد. الجزائر: دار الطّاسيلي للنّشر والتّوزيع، ص. 11، 12.

⁹ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ. ص. 13.
¹⁰ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. ص 40، وينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، صص. 24، 25.

¹¹ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ. ص. 14 وما بعدها.

¹² المرجع نفسه، ص. 22 وما بعدها.

في تقسيم العقل على هذا النحو-اعتمادا على التّراث طبعا-ليصل إلى أنّ الأوروبيين وفي مقدّماتهم الفرنسيين استعملوا العقل العملي وبالغوا فيه، وأهملوا العقل النّظري وزهدوا فيه، ويتّضح ذلك من خلال تقدّمهم وإبداعهم في المجال الصّناعي والحضاريّ على حساب القيم والتّعاليم والرّوحانيّات، فهو يقول: "... وقد اعتنى علماء فرنسا ومن حذا حذوهم باستعمال العقل العمليّ وتصريفه، فاستخرجوا الصّنائع العجيبة والفوائد الغريبة، فاقوا بها المتقدّمين، وأعجزوا بها المتأخّرين... فلو استعملوا مع هذا العقل النّظريّ في معرفة الله وصفاته، وفي معرفة حكمته في خلق السّموات والأرض، وما يلزم للإله من الكمال، وما يتقدّس عنه من النّقص، وما يمكن في حقّه أن يفعله وأن لا يفعله لكانوا حازوا المرتبة التي لا تُدرك، والمزية التي لا تُشرك، ولكنهم أهملوا استعمال هذه القوّة النّظريّة حتّى إنهم لا يُسمع منهم ذاكراً، ولا يَعُثُر عليها في كتبهم ناظر..."¹³، والأمير يُريد بذلك التزام الموضوعيّة قدر الإمكان، فهو يعترف بتقدّمهم العلمي والصّناعي، وبالموازاة يدعوهم إلى استكمال تقدّمهم بدعوتهم إلى معرفة الله - سبحانه وتعالى- والتّمسك بدينه القويم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم ينهر الأمير بالتقدّم الصّناعي والحضاريّ للأوروبيين، ولم يدفعه ذلك إلى الانقياد المطلق لهم رغم هزيمته الحربيّة معهم، وهذا يبعث على الإعجاب والاحترام من أعدائه وخصومه قبل محبّيه وأصدقائه.

اعتراضه على ماهية الضّوء عند الأوروبيين : وهذا طبعا من خلال تعريف علماء الكلام له، فقد اعتبره الأوروبيون جسماً له سرعة وانتقال، وعارضهم بأنّه عرضٌ لا جسمٌ قائم بجسم مضيء، ويظهر على ما يقابله من جسم كثيف يحلّ فيه، ولا يحلّ في الهواء¹⁴، والقصد أن الضّوء لو كان جسماً لاستقرّ في الفراغ، كما هو معروف في تعريفه عند علماء الكلام، ولما افتقر الضّوء إلى حاجز أو إلى جسمٍ آخر يستقرّ عليه علِمَ أنّه عرض يلتصق بالجسم ولا يقوم بنفسه.

تقديس العلم : والأمير يُركّز على ضرورة العلم باعتباره الخيط الذي تنتظم فيه حياة الإنسان الماديّة والدينيّة، والأمير يتدرّج في كتابه (ذكرى العاقل وتنبية الغافل)-الذي أرسله إلى الأكاديميّة الفرنسيّة- في بيان حقيقة العلم وضرر الجهل، ويقسّمه إلى علمٍ محمود؛ وهو ما ترتبط به مصالح الدّين والدّنيا كالطبّ والحساب، وإلى علمٍ مذمومٍ

¹³ المرجع نفسه، ص. 40، 41.

¹⁴ المرجع نفسه، ص. 41، 42.

كالسحر والطلسمات، وأبرز الأمير ما للقدماء في شتى أنواع العلوم، لا سيما المسلمين¹⁵، وبعدها ينتقل إلى إثبات العلم الشرعي، ويُقرّر فيه إثبات النبوة، وحاجة الإنسان إلى العلوم الشرعية والدينية، وهي لا تتحقّق إلا عن طريق الأنبياء والرسل - عليهم السلام -، وقد عرض الأمير أفكاره بطريقة تومئ إلى أنه كان موضوعياً، فلم يغلّ ولم يتطرّف ولم يتعصّب، ولم يحتقر علماً دون علم، ومن مظاهر ذلك تصريح الأمير بأن العلم تركة إنسانية اشتركت فيها الأمم القديمة المتحضّرة، وتميّزت كلّ أمة بلمسة خاصّة في ذلك تنفرد بها عن غيرها وتدلّ عليها، كاختصاص الهنود بعلومهم ومذاهبهم وحضارتهم، وهم أوّل من وضع الشطرنج، ومآثر الفرس والرّوم واليونان بصنائعهم وحنكهم وقوتهم، كلّ تميّز بما يخصّه ويوافق إبداعه واستعداده، وأنّ كلّ هذه المآثر هي ثمار جهد إنسانيّ عامّ مشترك، وانتهى الأمير إلى فضل العرب، ويبيّن أنّ فضائلهم كثيرة وجليلة على الإنسانية لا يُدانها فضل، وعدّد فضائلهم في الجاهليّة والإسلام، وإنّما انتحى الأمير هذا المنحى وانتهجه؛ لأنّه كان يؤمن إيماناً قوياً أنّ الوصول إلى الحقّ لا يكون إلا عن طريق العلم النافع، بما خلفه الأوّلون وما يجب أن يقوم به اللاحقون لبلوغ اليقين الذي لا يتحقّق إلا بالعقل والنقل¹⁶، ودعا إلى الاجتهاد:

الدّعوة إلى الاجتهاد: يدعو الأمير إلى استعمال العقل والإبداع والاجتهاد في ما هو متاح له، فهو يرى بأنّ "... نتائج الأفكار لا تقف عند حدّ، وتصرفات العقول لا حدّ لها ... ولا يُستبعد أن يدخّر الله لبعض المتأخّرين ما لم يعطه لكثير من المتقدّمين¹⁷ ... وقول القائل: ما ترك الأوّل للأخّر شيئاً خطأ، والقول الصّحيح هو: كم ترك الأوّل للأخّر، ويُقال: لا كلمة أضرّ بالعلم من قولهم: ما ترك الأوّل للأخّر شيئاً"¹⁸.

الاحتجاج بطبع العربي وبدوته

- يُولي الأمير اهتماماً كبيراً للاحتجاج بالطّبع والدّوق العامّ على خصومه، ويُحاول أن يوصّل لذلك ويجد له مسوّغات في الثّراث الإسلاميّ؛ إذ يرى بأنّ الطّبع والفطرة سابقتان

¹⁵ ينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر، ص. 198.

¹⁶ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 203.

¹⁷ هذا القول هو نفسه قول ابن مالك الأندلسيّ النّحوي في كتاب (التّسهيل) في النّحو. (التّسهيل، مقدّمة الكتاب).

¹⁸ الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، صص. 129-130، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر، ص. 201.

على النقل والسَّماع، ولولاهما ما ساغ تصديق الوحي والعمل بالسَّماع، ويحتجّ لذلك بأثر عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - على ذلك: "رأيت العقل عقليين: مطبوعٌ ومسموع، ولا ينفع مسموعٌ إذا لم يكن مطبوع، كما لا تنفع الشَّمس ونور العين ممنوع"¹⁹.

- احتجّ للأخلاق الإنسانيّة الفاضلة والتي دعا إليها الإسلام طبعاً وحثّ عليها، وحثّر من أضدادها، وأصلّ لذلك بناءً على الطّبع، وبه عرّف الأخلاق اعتماداً على علماء الكلام والفلاسفة فقال: "فالخلق عبارة عن هيئة النّفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر من غير حاجةٍ إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سُمّيت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصّادر منها أفعالاً قبيحة سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيّئاً"²⁰.

- احتجّ بالطّبع العامّ على أفضلية العلم واتّفاق المخلوقات جميعها على تفضيله، بما في ذلك البهائم التي لا تعقل، فأفضلية العلم لا تحتاج إلى عقل لإثباتها، بل اتّفاق الطّبائع البهيميّة وحده يكفي لإثبات شرفه ورفعته؛ إذ يقول: "... ومن دلائل شرف العلم ولوازمه احترام العالم في الطّباع، حتّى إنّ أغبياء النّاس وأجلافهم يُصادفون طباعهم مجبولة على توقير شيوخهم لاختصاصهم بعلم زائد مستفاد من التجارب، والبهائم بطباعها توقّر الإنسان لشعورها بتميّز الإنسان بكمالٍ مجاوز لدرجاتها، وإذا ثبتت فضيلة العلم كان تعلّمه أفضل ..."²¹، ويقول في موضعٍ آخر: "... والبهيمة مع قصور تمييزها تحشم العقل، حتّى إنّ أعظم البهائم بدنا وأشدهم ضراوة وأقواهم سطوة، إذا رأى الإنسان احتشمه وهابه، ولهذا ترى الأتراك والأكراد، والسّوادين وأجلاف الخلق مع قرب جنسهم من البهائم، موقّرون (كذا) الشّيخ بالطّبع، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكِبَر شخصه ولا لزيادة قوّته، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله"²². وأمّهات الأخلاق التي هي جماعها وأصلها عند الأمير هي أربعة: الحكمة، والشّجاعة، والعقّة، والعدل²³، فمن اعتدال هذه الأصول الأربع تصدر الأخلاق الجميلة كلّها، "فمن اعتدالها يحصل حسن التّدبير وجودة الدّهن، وثباته الرّأي، وإصابة الظّنّ، والتّفطنّ لدقائق الأمور، ومن إفراطها تصدر العريضة والمكر، والخداع

¹⁹ الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 12.

²⁰ ينظر: المرجع السابق، ص. 191.

²¹ الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 19.

²² المرجع نفسه، ص. 10.

²³ المرجع نفسه، ص. 194.

والدهاء، ومن تفریطها يصدر البله والغباوة، والحمق والجنون ...²⁴ وكلّ من جمع هذه الأخلاق استحقّ أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً يرجع الخلق كلّهم إليه، ويقتدون به في جميع الأفعال، وبحسن الخلق تُنال رئاسة الدّين والدّنيا²⁵، ولا شكّ أنّ أعظم النّاس أخلاقاً هو النّبّيّ -صلى الله عليه وسلّم-، وإنّما يُقاس النّاس من حيث أخلاقهم بمدى القرب والبعد منه²⁶.

-عندما اختلف بعض أمراء فرنسا في أفضليّة البادية والحاضرة احتكموا إلى الأمير، فوجّه إليهم قصيدته الشّهيرة؛ وهو بدوره احتكم إلى طبعه الذي جُبِلَ عليه، وهو طبع العربي التّامثي على الفطرة، والذي لم يتلوّث بمقتضيات المدنيّة، فقال: [البسيط]

يَا عَاذِرًا لِأَمْرِي قَدْ هَامَ فِي الْحَضَرِ وَعَاذِلًا لِجُحِبِّ الْبَدْوِ وَالْقَفْرِ
لَا تَدْمُنْ بِيُوتًا خَفَّ مَحْمَلُهَا وَتَمْدَحَنْ بِيُوتِ الطِّينِ وَالْحَجَرِ
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي الْبَدْوِ تَعْدُرُنِي لَكِنْ جَهَلْتَ وَكَمْ فِي الْجَهْلِ مِنْ ضَرَرٍ²⁷

لَوْ قُضِيَتِ الْمَرْأَةُ: من نقاط التماس التصادم بل والطعن في الصّراع الحضاري بين الغرب والإسلام عموماً، وبين الأمير والفرنسيين قضية المرأة، وهي من أهمّ وأعقد القضايا التي ما فتئ أعداء الأمة يستثمرون فيها، ويعطونها حيّزاً كبيراً من الاهتمام لاختراق المجتمع الإسلامي وتفكيك بنيته والقضاء عليه تدريجياً، ومثار الجدل في كون دور المرأة في المجتمع فارقاً أساسياً في مقاييس رقيّ الحضارة وانحطاطها، ولهذا كانت من أهمّ التّساؤلات والإشكالات التي طُرحت على الأمير من طرف النّخبة الفرنسيّة، ففي نظر الحضارة الإسلاميّة تُعتبر المرأة سيّدة تُدير شؤون البيت بإرادتها، فهي رغم الصّون الذي تحظى به من قبله إلا أنّها عُرضة لأن ترى من تنافسها في عواطف زوجها (التعدّد)، حكمت عليها القيم بالاحتجاب، مهيةً للزّواج في سنّ مبكرة خوفاً على شرفها من الانتهاك، وحظّها من الميراث أقلّ من قرينها الرّجل، يُفضّل لها أن لا تُحسن الكتابة دفعاً لاحتمال الفساد بسبب ذلك، وعليها أن تتخلّق وتتأدّب بأداب الحياء والأخلاق الكريمة بما يجعلها محلّ إعجاب

²⁴ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 195.

²⁵ نفسه، ص. 196.

²⁶ نفسه، صص. 195، 196.

²⁷ ينظر: بشرى خيريك، تحفة الزائر. (2-17)، ص. 18.

الرّجل وفخره. وهي في الحضارة الغربيّة سيّدة بارزة تُخالط الأوساط وتحتكّ بالرّجال، ولا أحد من المجتمع ما يحدّ من حرّيتها في المسلك العمومي والتعليم، لذلك هي أقرب للفساد وعرضة للامتحان، فحالها في الغرب ليس بالمثالي، فقد تحوّلت إلى سلعة، وأدّت حرّيتها - بالمفهوم الغربي - إلى التفسّخ وانتشار الميوعة، وتفشّي الشذوذ، وابتعدت المرأة عن عزّتها بفقدان مؤسّسة الرّواج مكانتها²⁸.

- ففي السّؤال الوارد عليه من الجنرال الفرنسي "دوماس" حول المهر في الرّواج واعتبار المرأة ملكاً للرّجل، احتجّ بالعرف العربي فقال: "... وكانت نساء العرب يعلمن بناتهنّ عند الرّفاف كيف يختبرن أزواجهن فتقول الأمّ لابنتها: يا بنية اختبري زوجك قبل الإقدام والجراة عليه فانزعي زج رمحه، فإن سكت فقطعي اللّحم على ترسه، فإن سكت فكسري العظام بسيفه، فإن سكت فاجعلي البردعة على ظهره واركيهه فإنّه حمارك"²⁹.

- وفيه أيضاً في تزويج الفتاة الصّغيرة يرّد عليه بالطّبع أو العُرف العربيّ فيحتجّ بأنّ بنات العرب يسرع إليهنّ البلوغ، فكثيراً منهنّ تبلغ في تسع سنين، ويردّ عليهم في تأخير الرّواج فيقول: "وأما تأخيركم للرّواج فمن أسباب الرّنا من حصول الاجتماع والاختلاط"³⁰، وفي تزويج البنت في سنّ مبكرة حسماً لأسباب الانحراف والمجون في المجتمع³¹، والشريعة في مقاصدها جاءت لسدّ الدّرائع وغلق أبواب الفساد والفتنة.

- وأما زواج المومس فنهى الشّرع عنه بما يوافق الطّبع والغيرة والطّهارة، فقال: "... ولا يفعله إلّا أحسنّ النّاس وأرذلهم..."³².

- وفي الطّلاق عند المسلمين يرّد أيضاً بالطّبع، ويحتجّ ببعض أقوالهم فيقول: "عُرف العرب وأخلاقهم في الطّلاق: إذا لم يكن وفاق ففراق، ويقولون: دواء ما لاتشفيه التّفسّ الفراق، والعيش لا يطيب بين اثنين من غير اتّفاق"³³.

- ويقف الأمير من تعليم المرأة موقفاً سلبياً، بالنّظر لأعراف المجتمع الجزائريّ يومئذ، والإنسان ابن بيئته فيقول: "... فاعلموا أنّ العربيّات إنّما يتعلّمن الأدب الذي يليق

²⁸ ينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. صص. 186-190.

²⁹ بشرى خيريك، تحفة الزّائر. (2-161)، وما بعدها.

³⁰ المرجع نفسه، (مج. 2-175)، ص. 176.

³¹ ينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 183.

³² بشرى خيريك، تحفة الزّائر. (ج. 2). ص. 761، وينظر: سليمان عشراي. الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 186.

³³ بشرى خيريك، تحفة الزّائر. (2-717).

بأزواجهنّ، وتصلح به العشرة بين الفريقين، وتجلب قلوب الأزواج إليهنّ...". فالأمير يرى بأنّ النّساء لا يصلحن لتعلّم الكتابة، وإنّما يتعلّمن ما لا يسعهنّ جهله، ومن جملتها طبعاً تعلّم الأخلاق والعقّة والحياء وحسن معاشرّة أزواجهنّ، وهو يرى بأنّ تعلّم المرأة للكتابة من أسباب الزّنا³⁴؛ لسهولة التّواصل بها، ودفع المفاسد أولى من جلب المصالح، في مجتمع محافظ جدّاً يعتبر الموت أولى من وقوع المرأة في المعصية، ويقول: "... فتعليم الكتابة واجبٌ على الرّجال مكروه على النّساء..."³⁵، وقد شكّك بعض الباحثين في نسبة هذا الموقف للأمير، خاصّة وأنّ أسرته كانت تعرف الكتابة، ومنها بناته وأخواته و والدته كنّ يعرفن القراءة والكتابة، وعُرف عنه أيضاً بناؤه للرّمالة المتنقّلة، وكانت بها مكتبة ضخمة تحوي آلاف المخطوطات³⁶، وهذا تحقّقٌ في محلّه، وربّما لم يفهم رأيه على الوجه الصّحيح، وخاصّة أنّ مصدر هذه المعلومات تعرّض للرفض والانتقاد من محيط أبناء الأمير نفسه³⁷.

-ويستشهد بأقوال نساء العرب بذلك، فيقول:

"قالت امرأة لابنتها: يا بنية لو استغنت امرأة عن زوجها لغناها لكانت أغنى النساء عن الرّجال، ولكنّ النّساء خلّفن للرّجال كما أنّ الرّجال خلقوا للنّساء كوني لزوجك أرضاً يكن لك سماء، وكوني له وطاء يكن لك غطاء، واصحبيه بالقناعة وعاشريه بالسّمع والطاعة. ولا تغفلي عن موضع نظره، ولا موقع أنفه، فلا تقع عينه على قبيح منك، ولا يشمّ منك إلا ريحاً طيبة، ولا تغفلي عن وقت طعامه ولا عن موضع منامه، فإنّ حرارة الجوع تلهيه، وتنغّص النّوم ينغّصه واحفظي ماله وتفقدني خدامه وعياله، ولا تفرحي إذا كان حزينا، ولا تحزني إذا كان فرحاً، وعلى قدر تعظيمك له يكون إكرامه لك، وقدّمى ما يحبّه على الذي تحبّينه أنت، وقالت أخرى: لا تعصي لزوجك أمراً ولا تفتشي له سراً، وكوني لزوجك أكثر النّاس إعظاماً يكن أكثر النّاس لك إكراماً... ومن قول العرب: يلزم أن تكون المرأة فوق الرّجل في ثلاثة أشياء وإلا احتقرها: الأدب والجمال والصّبر..." (خيريك، 2012، ص. 179)³⁸

³⁴ ينظر: سليمان عشراطي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 185.

³⁵ بشرى خيريك، تحفة الزّائر. (2-178).

³⁶ دراسة لبعض مغالطات المصادر التّاريخيّة وتناقضاتها (تحفة الزّائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) أنموذجاً للدراسة. بشرى خيريك، (2012، كانون الثّاني/حزيران). مجلّة دراسات تاريخيّة، (117-118)، دمشق. صص. 434-435.

³⁷ المرجع نفسه، ص. 423 وما بعدها.

³⁸ بشرى خيريك، تحفة الزّائر. (مج. 178/2)، ص. 179.

وفي ردّه على الجنرال دوماس باحتقار العرب للنساء، يردّ عليه بأشعار العرب في مكانة المرأة عندهم وتكريمهم لها، فالشعر لا يتأتى لغلاظ الطباع وأجلافهم، وإنما حيث وُجد الشعر وُجدت الرقة وأجمل معاني الإنسانية، فيحتجّ الأمير بقوله في امرأته شعرا: [الوافر]
وَأَخْضَعُ ذَلِيلَةً فَتَزِيدُ تَهْمًا وَفِي هَجْرِي أَرَاهَا فِي اشْتِدَادِ
فَمَا تَنْفَكُ عَنِّي ذَاتَ عَزٍّ وَمَا أَنْفَكُ فِي ذُلِّي أَنْوَادِي
وَمِنْ عَجَبِ تَهَابِ الْأُسْدِ بَطْشِي وَيَمْتَعْنِي غَزَالٌ عَنْ مُرَادِي³⁹

- وفي ردّه عليه في كون العرب يسيئون معاملة المرأة ومُهينونها، أجاب بأنه لا يفعله إلا أوباش الناس وسفهاؤهم الذين لا دين لهم ولا مروءة، وأمّا أفاضل العرب وأهل الدين منهم فإنهم لا يفعلون مع النساء إذا فسُد حالهنّ إلا ما يطيب قلوبهنّ ويرضينهنّ، فالنساء في طبع العربيّ الأصيل يغلبن الكرام، ويمهينن اللئام⁴⁰.

- مكانة المرأة: لقد اتّخذ الطاعنون في دين الإسلام من المرأة حيزًا كبيرًا للطعن فيه، ويُقرّر الأمير أنّ المرأة في المجتمع الإسلامي تُعتبر حجر الزاوية، ويستدلّ بأسرته، ويبيّن مكانة المرأة فيها، حيث كانت أمّه هي المدير الفعليّ لشؤون أسرتها⁴¹، وعلى الرّجل أن لا يُكلّفها العمل الشاقّ، وهذا من الدّين والمروءة ولو كان فقيرًا⁴².

- احتجاب المرأة: وهو من طبع العرب وعرفهم، فالجمال الذي لا صيانة معه مذموم، ويوافق طبيعتها وطبيعة الرّجل، وهو سلوك أهل العفة الشرف والكرامة، ولا يقوى عليه المسلم، كما أنّه من أخلاق الدّين الإسلامي، وأمّا أهل الغرب وفرنسا فقد تكيّفت أخلاقهم بحكم عاداتهم وتطبّعهم على سلوك الاختلاط، وهذا أدّى إلى ضعف الشّهوة، وإنّما تقوى بالغريب الجديد⁴³.

³⁹ بشرى خيريك، تحفة الزائر. (2-171).

⁴⁰ بشرى خيريك، تحفة الزائر. (738-2). وما بعدها، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر، صص. 181، 182.

⁴¹ ينظر: المرجع السابق، مج (2-745)، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 182.

⁴² ينظر: المرجع نفسه، مج (2-739)، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 182.

⁴³ ينظر: المرجع نفسه، مج (2-742)، وما بعدها.

- وفي قضية الميراث يردّ بالطّبع العامّ والدّوق المشترك في الإنسانيّة، فهو يرى بأنّ مبدأ تفاوت الميراث بين الرّجل والمرأة ينسجم مع فضل الرّجال على النّساء المهيبين خِلقَة للاضطلاع بعضائهم الأمور كالسلطنة، ومباشرة القتال، وتولية الأعمال والمناصب الدنيويّة، والرّجل يُحارب ويُدافع عن بلاده وعشيرته... ويتعيّن الإنفاق عليه بخلافها" (سليمان عشراي، 2011م، ص. 184).

- الاحتجاج على الأخلاق الفاضلة للعرب من الكرم والوفاء بالعهد ونحوها بقصص العرب في الجاهليّة والإسلام، وبالأحداث التاريخيّة والمواقف المشهودة (سليمان عشراي، 2011م).

- ومن الطّبع الخاصّ بالعرب والمسلمين يُحاول الأمير أن يعطي بنفسه وأخلاقه نموذجاً لأخلاق الإسلام وتعاليمه وطهارة أحكامه، فقد حاول جهده الالتزام بأحكام الإسلام النقيّة إفتحاماً للطّاعين في دين الإسلام من الفرنسيين وأشياهم، فالتزم الأمير بمحاسن الأخلاق وأشرفها حرباً وسلماً؛ من المحافظة على العهد وإكرام الأسرى وغير ذلك، فانتهت بهم إلى أن يقتنعوا أنّهم أمام نموذج إنساني راق ورفيع الدّرجة والدّكر؛ بما يتحلّى به من كريم الصّفات وجميل النّعوت والأخلاق (سليمان عشراي، 2011م).

- في تعدّد الرّوجات يُجيب أيضاً بالطّبع والعرف العربيّ، فمن طبعهم الإكثار من الرّوجات، وحدّد الشّرع ذلك بأربع، ويُمثّل الأمير بنفسه وعائلته (سليمان عشراي، 2011م).

- قضية الجهاد: ومن أكبر المسائل التي اتّخذها المُعرضون من النّصارى والمُلاحدين باباً للطّعن والتّشكيك في رسالة الإسلام هي قضية الجهاد، وما يترتّب عليها من سفكٍ للدّماء وإتلافٍ للنّفوس وترويعٍ للأمنين، فردّ عليهم أيضاً بما يتوجّب من الطّبع الموافق للحكمة والشّرع، وأمّا رؤيته للقتال والجهاد فيقول: "ليس المقصود من الجهاد والقتال إتلاف العباد، ولا تخريب البلاد، ولا الرّغبة في الأموال، وأمّا المقصود به دفع ضرر الأمم المخالفة، ودفع كلمة الإسلام بالقتال أو بغيره، ولو تُوهّم حصول ذلك من غير قتال ولا دفعٍ ما وجب القتال، لأنّ الحكم يدور مع العلوّ وجوداً وعدمًا..."⁴⁴، وأنّه مبنيّ في مقاصد الشّريعة وعلى

⁴⁴ الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ. ص. 201، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر، ص. 214.

المصلحة الرَّاجحة، فهو شرٌّ قليل لحماية الخير الكثير⁴⁵، وقد أقرَّ الحكماء أنّ الخير الكثير يلزمه شرٌّ قليل، لأنّ في ترك خيرٍ كثيرٍ يلزمه شرٌّ قليل شرّاً كثيراً.

- **الوفاء بالعهد وذمّ الغدر والخيانة** : اشتهر العرب في جاهليّتهم بتعظيم ذلك والوقوف عنده، فكان استعظامهم ومراعاتهم له فوق ما يُتصوّر، وقد فاقوا به سائر الأمم، فحسب الأمير قد "كانت لهم نفوسٌ زكيّة، وأخلاقٌ مرضيّة، وخصالٌ كريمة، وهممٌ عظيمة، وعقولٌ راجحة، وآراءٌ ناجحة، وشرفٌ صميم، وأنفةٌ من كلّ خلقٍ ذميم، طُبِعوا على خصال الفضل والمروءة قبل أن تكون بينهم النّبوة"⁴⁶. واستشهد بقول ابن المقفّع -وهو فارسيّ- في أفضليّة العرب وسبقهم لسائر الأمم، وسلامة طباعهم⁴⁷، ولما نزل الوحي والآيات القرآنيّة استحَبَّ طباعهم ذلك ووافقهم وإن أنكره بعضهم وجحد، "ولذا تراهم في الجاهليّة والإسلام أكثر مدحهم بالصدّق والوفاء، وأشدّ ذمّهم بالغدر والكذب، ولهم في ذلك أسجاع وأشعار تخرج عن الإحصاء"⁴⁸.

- **التّمثيل بالطّبّ والطّبيعة عند تعيّن القتال** : ويُمثّل الأمير كعادته على صدق دعاويه بالطّبيعة والطّبّ باعتبار علماء فرنسا لهم تقدّم كبير فيهما، فيمثّل بالنّار؛ وفيها منافع كثيرة، وإن كان يلزمها أحياناً حريقٌ ثوبٍ فقير، وهو شرٌّ قليل بالقياس إلى منافعها، فلا يقول عاقلٌ بإعدام النّار لأجل ما يترتّب عليها من بعض المفاسد. ويُمثّل بالطّبّ فضرر الجزء يحسن إذا أدّى لحماية الكلّ، فيوضّح الأمير ذلك بقوله :

"... وضرر الجزء يحسن إذا دفع مفسدة عن الكلّ، ألا ترى أنّ العقل يحسّن قطع الأنملة إذا خيف فساد الأصبع، ويحسن قطع الأصبع إذا خيف فساد الكفّ، ويحسن قطع الكفّ إذا خيف فساد الدّراع، ويحسن قطع الدّراع من أصله إذا كان ذلك يجلب مصلحة للبدن الذي هو الأكثر، وإذا كان هذا عدلٌ ولا جور فيه، وحُسْنٌ ولا قُبْحٌ فيه، فكذلك ذاك ..."⁴⁹

وسرد الأمير بعدها الكثير من أمثال العرب وحكمهم في مدح الأخلاق الفاضلة وذمّ قبيحها.

⁴⁵ ينظر: الأمير عبد القادر، المقرض الحادّ. ص. 197.

⁴⁶ نفسه، ص. 243.

⁴⁷ نفسه، صص. 243، 244.

⁴⁸ نفسه، ص. 244.

⁴⁹ نفسه، ص. 198، 199.

-الاحتجاج بأشعار العرب على أخلاق العرب ومدحهم للكرم والصدق والوفاء، وذمهم لأضدادها من مستقبح الأخلاق، وطالما كان الشعر ديوان العرب، فحمل أخبارهم وأخلاقهم كان من الصواب الاستشهاد به على ما أنكره خصوم الأمير من أخلاق المسلمين والعرب، وقد ذكر شيئاً كثيراً منها في كتاب (المقراض الحادّ) وغيره، منها قول امرئ القيس :
[الطويل]

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَانِلاً وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدٍ وَمِنْ حُجْرٍ
سَمَاحَةً ذَا وَبِرّاً ذَا وَوَفَاءً ذَا وَنَائِلَ ذَلِكَ ذَا صَاحَا وَذَا سُكْرٍ⁵⁰

ومن ذلك الاستشهاد بقول زهير : [الطويل]

وَفِي الْجَلْمِ إِذْعَانٌ وَفِي الْعَفْوِ مَدْحَةٌ وَفِي الصِّدْقِ مَنَجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ فَاصْذُقْ⁵¹

وذكر من أشعار الجاهليين والإسلاميين والمتأخرين من أهل الأندلس والمغرب وغيرهم من مشاهير الشعراء الذين تفاخروا بالخلق الحسن.

- ومنها أنّ القتال لا يكون إلا لضرورة، وذلك بكونه آخر حلّ بعد الدّعوة إلى الإسلام ثمّ الجزية ثمّ القتال.

- ومنها آداب القتال، والتي حرص الإسلام عليها أشدّ الحرص، وحذّر من مخالفتها أشدّ التحذير، فمن الكليّات الخمس للشريعة حفظ النفس، ومن هذه الآداب أنّ المرأة لا تُقتل وتترك على دينها، ويدعم الأمير ذلك بأقوال أهل العلم، ومنها قول العلامة خليل في (مختصره) : "واقتلوا إلا المرأة"⁵²، وهذا ليبيّن الأمير أنّ آداب القتال أصيلة عند المسلمين، وليست وليدة الأحداث أو مستجدّات الحضارة، ومن آداب القتال أنّه من لا يُقاتل لا يُقتل لعدم ضرره، كالصّبيان، والمرضى، والضّعفاء، وأهل الصّنائع، والرهبان، والقساوسة، وأمثالهم، بل يُعطى لهم ما يكفهم لقوتهم وعيشهم.

⁵⁰ نفسه، ص. 247.

⁵¹ سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر، ص 251.

⁵² المرجع نفسه، ص. 199، وينظر : خليل بن إسحاق الجندي المالكي، (2007). مختصر خليل. ضبطه وعلّق عليه ووضع ترقيمه : أحمد عليّ حركات، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص. 101.

- وفي الأخلاق يُبين الأمير أنّ الأخلاق الفاضلة من الصدق والوفاء والعهد توافقت استحسان الطّبع لها، كما توافقت استقباح الطّبع لأضدادها من الكذب والخيانة ونحوها، والشريعة الإسلامية موافقة للطّبع في ذلك، بل كان معروفاً ذلك عند العرب في أيام جاهليّتهم، وذكر حوار هرقل مع أبي سفيان في جاهليّته حول خبر النّبّي -صلى الله عليه وسلم- وأنّ أبا سفيان آنذاك مع شدة بغضه للإسلام لم يستطع أن يكذب حين سأله هرقل عن النّبّي -صلى الله عليه وسلم، فقال أبو سفيان: "فَوَ اللَّهُ لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْتُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ"⁵³، وأنّ المسلمين الأوائل جرى الصدق فيهم مجرى الطّبيعة والفطرة، وأنّ أحدهم ليأنف من أن يتّصف برذائل الأخلاق، ومن ذلك قول ابن السّمّاك: "ما أظنّ أنّ الله يأجرني على ترك الكذب، لأني إنّما أدعه أنفة"⁵⁴، ووافق الشّرع الطّبع في ذلك فجعله من علامات النّفاق.

الاستشهاد بالكتاب المقدّس (التّوراة والإنجيل): كآني بالأمر أثناء مُحاوراته وسجلاته مع الفرنسيّين يعتبرهم أمة كتابيّة، وهو يستحضر ذلك دوماً في جميع أطوار التّواصل⁵⁵، وهو يحرص أشدّ الحرص على الالتزام بندااء القرآن وأحكام الإسلام في معاملة الكتابيّين (اليهود والنصارى)، ممتثلاً قوله تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)" [آل عمران: 64].

- قضيّة المرأة: عند محاورته للنّصارى يحتجّ عليهم بالعقل وبما في كتابهم المقدّس، من ذلك: "... وفي العهد القديم في سفر التكوين قال الله لحواء: "تكونين تحت سلطان الرّجل وهو يتسلّط عليك"، فإذا خالف الرّجل هذا وصار تحت قهر المرأة فقد خالف حكمة الله واستحقّ الغضب من الله، لأنّ الله جعل الرّجل متبوعاً لا تابعاً، وأمر لا مأموراً، وناهياً لا منهيّاً..." (بشرى خيريك، 2012، ص. 163).

- وفي احتجاجه على أسئلة الجنرال دوماً واستشكالاته حول الحجاب والالتحاف؛ احتجّ بخبر المسيح -عليه السّلام-: "... وقال عيسى -عليه السّلام-: إياكم والنّظر فإنّه يزرع في القلب الشّهوة"⁵⁶.

⁵³ المرجع نفسه، ص. 216.

⁵⁴ المرجع السابق، ص. 214.

⁵⁵ ينظر: عبد القادر شرشار، (2003). شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر. ترجمة كتاب عبد القادر لقوستاف دوقا، أنموذجاً، مجلّة إنسانيات، الجزائر، وهران: مركز البحث في الانثروبولوجيا، موقع إلكتروني: <http://insaniyat.revues.org/5976>

⁵⁶ المرجع نفسه، (ج. 2)، ص. 161 وما بعدها، وينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 182.

- وفي تزويج البنت صغيرة ممّا احتجّ به على دوماس ما جاء في التّوراة، فقال: "...وتزويج الصّغيرة جازئ في الشّرائع القديمة⁵⁷، ففي التّوراة: "إذا بلغت البنت اثنتي عشرة سنة فلم يزوّجها أبوها فأثمت البنت إثما فإنم ذلك عليه، لأنّه هو السّبب في تأخير تزويجها" (بشرى خيريك، 2012، ص. 176).

- وفي تعدّد الزّوجات يُجيب بأنّها من سنن الأنبياء، كيعقوب -عليه السّلام- وغيره من أنبياء بني إسرائيل -عليهم الصّلاة والسّلام⁵⁸، وفي اتّخاذ الإماء احتجّ بإبراهيم -عليه الصّلاة والسّلام- وغيره، وكان ذلك معروفاً شائعاً في الحضارات القديمة⁵⁹. وهذه الظّاهرة في الحقيقة يُقابلها عند الغرب ما هو أشدّ وأقبح، وهو اتّخاذ العشيقات والمومسات في إطار دعوى التّحرّر وحقوق الإنسان⁶⁰.

- وفي إنكار الجنرال دوماس الطّلاق عند العرب وما يترتّب عليه من مساوئ أجاهه الأمير بأنّ الطّلاق ضرورة في حالة انسداد العلاقة بين الرّجل والمرأة، وهي شريعةٌ قديمة مباحة في الأديان القديمة⁶¹، واحتجّ بنصوص من الكتاب المقدّس فقال: "... والطلاق مباح في الأديان القديمة، ففي التّوراة في الإصحاح الحادي والعشرين في سفر الخروج: إن استقيح سيّدها زواجها فليطلقها"، وفي سفر الأحبار في الإصحاح الثّاني والعشرين: إن طُلقت بنت الكانه ولم يكن لها أولاد ورجعت إلى بيت والدها تَأْكُل من القدس؛ فعُلم من هذا أنّ الطّلاق ليس خاصّاً بالمسلمين" (بشرى خيريك، 2012، ص. 177).

- وفي قضية الميراث التي استشكلها الفرنسيّون يردّ أيضاً بنصوص التّوراة، فتفاوت الميراث بين الرّجل والمرأة دلّت عليه التّوراة قبل القرآن فقال: "... وما ورد في الإصحاح الثّاني والعشرين: "من مظاهر تفضيل الله لجنس الذّكور على الإناث"⁶².

الاحتجاج بقصص أهل الكتاب (اليهود): ويحتجّ الأمير أيضاً بأخبار المنصفين من أهل الكتاب، وممّن خاضوا تجارب التّكذيب والإلحاد ثمّ اعترفوا ورجعوا إلى دين الإسلام، كقصّة اليهوديّ الذي كان في عهد المأمون الذي امتحن الأديان، فكتب كتبهم السّماوية وغير

⁵⁷ ينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكّر. ص. 183.

⁵⁸ المرجع نفسه، ص. 180.

⁵⁹ المرجع نفسه، ص. 181.

⁶⁰ المرجع نفسه، ص. 181.

⁶¹ المرجع نفسه، ص. 184.

⁶² المرجع نفسه، ص. 184.

ففيها وباعها ونجح في ذلك، وعندما وصل إلى القرآن فطنوا لذلك ولم يستطع بيعه، فعلم أنّ كلّ الكتب تقبل التغيير والتبديل والتحريف إلا القرآن؛ لكونه محفوظاً بحفظ الله له، وفي صدور أهله، فأعلن إسلامه لهذا السبب⁶³.

- ومنها أيضاً اعتراف المنصفين من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) بصدق الإسلام وأتته دين الحق، وحكى الأمير أخبار من اعترفوا بالإسلام منهم، ومن ذلك اعتراف هرقل ونصارى الروم في زمانه على نبوته -صلى الله عليه وسلم- وحكى قصته مع أبي سفيان وغيره⁶⁴، وأن هرقل جمع أعيان قومه بجمص، وقال لهم: "يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فنباع هذا النبي"، فانزعجوا لذلك أشد الانزعاج وهموا بالخروج من مجلسه، فوجدوا الأبواب قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من إيمانهم أمر بردهم بعد نفورهم، وقال: "إني قلت مقالتي كي أختبر بها شدتكم على دينكم"⁶⁵.

الاحتجاج بأحكام الشريعة الإسلامية: نرى الأمير يحتج في مواطن كثيرة على الفرنسيين بأحكام الشريعة الإسلامية؛ اجتهاداً منه في بيان نفاها وأنها شريعة الفطرة والإنسانية، من هذه المواضع مثلاً:

- "... وعندنا - أي في الشريعة الإسلامية- إذا صبغ الرجل شبيه وتزوج المرأة وأوهما أنه شاب فإن الشريعة يعاقبه ويفسخ النكاح ويبطله" (بشرى خيريك، 2012، ص. 169)، وهذا ليبين أنّ زواج الفتاة الصغيرة من الرجل المسن لا يكون دون إرادتها، وأنّ الزواج عند المسلمين يتمّ بالمناصحة والمكارمة والتوافق والتراضي.

- وفي ردّه على طعن الجنرال دوماس في خروج المرأة وحضورها للجنائز يردّ بأحكام الشريعة الموافقة للتجربة والطبع، فقال: "... وتُمنع المرأة من شهود الجنائز تجنّباً للفتنة..."⁶⁶. وفي ردّه على مزاعم بعض النصارى أنّ المسلمين لا يأخذون بالأسباب ردّ ببعض الأحاديث النبوية الشريفة، كحديث مسلم: "لكلّ داءٍ دواء"، وحديث الحاكم في (المستدرک): "ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواءً علمه من علمه وجهله من جهله"⁶⁷، وبين وجه الاستدلال بها على وجوب الأخذ بالأسباب بأقوال شراح صحاح كتب الحديث، كابن أبي جمرة وابن حجر والأبي، ووجه الاستدلال بها ظاهر الدلالة.

⁶³ ينظر: الأمير عبد القادر، ذكرى العاقل وتنبية الغافل، ص. 107.

⁶⁴ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 216 وما بعدها.

⁶⁵ المرجع نفسه، ص. 219 وما بعدها.

⁶⁶ ينظر: سليمان عشراي، الأمير عبد القادر المفكر. صص. 185، 186.

⁶⁷ ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 49.

- في الاحتجاج لعدالة شريعة الإسلام يؤصل ذلك على الأخلاق، وأن فضائل الشريعة ومحاسنها جاءت لصالح الدنيا والآخرة وعمارتها، فيحتج بالآيات الكريمة في خلق النبي - صلى الله عليه وسلم، نحو قوله تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"، وقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"، ويحتج كذلك بالحديث الشريف في قوله -صلى الله عليه وسلم: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"⁶⁸.

- وفي الاحتجاج لأداب القتال عند المسلمين، وأن الإسلام دين لا يحرص على سفك الدماء كما يدعي المغرضون، وأن القتال في الإسلام من باب دفع الضرر الكبير بارتكاب أخفها، مثل الكي والبتير عند الأطباء لحماية الكل من الإتلاف، فذكر الأمير جملة من الأحاديث النبوية الشريفة في هذا الباب، ومنها قوله -صلى الله عليه وسلم-: "اغزوا باسم الله، ولا تُمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً" وغيرها⁶⁹.

- وفي بيان أن الإسلام دين عهد ووفاء بخلاف ما زعم خصوم الأمير، احتج عليهم بنصوص القرآن والسنة، منها قوله تعالى: "وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ" وعقب بعد ذلك بتفسير البيضاوي لهذه الآية، وبقوله تعالى: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُضُونَ أَلْيَثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ" الآية، ويقوله تعالى: "وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا"، وعقب أيضا بتفسير البيضاوي وابن جزري على هذه الآية، وغيرها من الآيات في المحافظة على العهود والتحذير من مخالفتها ولو مع الكفار والأعداء الذين تبغضونهم.

- وفي حث الإسلام على الأخلاق الفاضلة وتحذيره من الأخلاق الذميمة بخلاف دعوى الخصوم، ساق الأمير الكثير من النصوص الشرعية الدالة على ذلك والمبطللة لمزاعم هؤلاء، كمدح الصدق ودم الكذب، وأن الصدق في نظر المسلمين هو أصل الأخلاق وأسسها، وبخلافه الكذب، وأن الصدق من أبواب الجنة، كما أن الكذب من أبواب النار، وساق لذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: "عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب

⁶⁸ المرجع نفسه، المقراض الحادة، ص. 189.

⁶⁹ ينظر: سليمان عشراطي، الأمير عبد القادر المفكر، صص. 200، 201.

ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً⁷⁰، وحديث: "خياركم أحاسنكم أخلاقاً"، وحديث: "الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله"⁷¹، وغيرها من النصوص الدالة على براءة الإسلام مما ألصقه به خصومه من اليهود والنصارى والملحدون الفرنسيين وغيرهم.

- الاحتجاج بنصوص الأئمة وخاصة المالكية، ففي اتهام الفرنسيين للمسلمين بالخيانة وعدم الوفاء يحتج بنصوص مختصر خليل وغيره، والوفاء بالعهد بلغ عند المسلمين حدّاً لا يُعرف له مثل عند غيرهم، لدرجة أنّ الأسير المسلم عند العدو إذا أمتوه على نفسه يحرم عليه الهروب، كما قال خليل: "وَحُرْمُ خِيَانَةِ أُسِيرٍ ائْتَمَنَ طَائِعاً وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ"⁷²، وعضده بأقوال أئمة المذهب كاللخمي إذ يقول: "لا يهرب ولو أمتوه مكرها لئلا يقول العدو: المسلمون لا يوفون بالعهد"⁷³، وكذلك إذا سرّحوه بشرط عدم غزوهم، ويقع الوفاء حتى في كيفية القتال بالسيف أو الرمح، أو راجلاً أو راكباً، ويتعيّن على المسلمين أن لا يُعينوا أصحابهم في حال الشّرط، ويحتج بقول خليل أيضاً: "كالمبارز مع قرنه يجب عليه الوفاء بالشّرط"⁷⁴، والوفاء بالعهد في الحروب، والالتزام بأخلاقيات الحرب عند المسلمين مبسوط في كتب الفقه، ومنها في حال اختلال الشّرط من العدو، وإرادة نقضها ونبذ العهد، يُعلمونهم بذلك، ويستدلّ بقول خليل: "وإن استشعر خيانة نبذه وأنذرهم"⁷⁵، ووضّح هذه العبارة بكلام أبي بكر ابن عربي، وأنّ الخيانة إذا ظهرت علاماتها ودلّت عليها دلائل، وجب نبذ العهد خوف الوقوع في المهلكة بالتّمادي، وكذلك في حرمة المعاهد ووجوب حمايته والقصاص له في حال تعرّضه لمكروه، من أوكّد المواثيق والعهود التي حثّ الشّرع عليها وحذّر من التعديّ عليها، ويستدلّ بنصوص الشّرع، ومنها قوله -صلى الله عليه وسلّم-: "من قتل معاهداً بغير جرم لم يرح رائحة الجنّة، وإنّ ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً" رواه البخاريّ في الصّحيح (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 227)، ثمّ يرجع الأمير إلى الإشارة إلى بعض الأحداث التي ربّما خالفت ذلك من بعض المسلمين، فيقول: "أمّا من خالف هذا من المسلمين فهو صاحب دنيا بلا دين، وكان إسلامه دعوى لا حقيقة، وناقصاً

⁷⁰ ينظر الحديث: نفسه، صص. 207، 208.

⁷¹ ينظر الحديث: نفسه، ص. 209 وما بعدها.

⁷² ينظر: الأمير عبد القادر، المقراض الحادّ، ص. 223.

⁷³ المرجع نفسه، ص. 224، وينظر: خليل بن إسحاق الجندي المالكي، مختصر خليل، ص. 102.

⁷⁴ المرجع نفسه، ص. 225، وينظر: خليل بن إسحاق الجندي المالكي، مختصر خليل، ص. 103.

⁷⁵ خليل بن إسحاق الجندي المالكي، مختصر خليل، ص. 107.

لا كاملاً... " (الأمير عبد القادر، 1989م، صص. 228-229)، ويبيّن أنّ ذلك لا يدخل في حال اشتداد الحرب، فإنّ الحرب خدعة، لا يختلف في ذلك أهل الأديان ولا غيرهم، وهذا بعد تعيّن القتال وتحقّق شروطه (الأمير عبد القادر، 1989م، ص. 229). وحكى من أخبار المسلمين وقصصهم ما يؤكّد وفاءهم بالعهد والتزامهم بالشروط، ومنها عند غزو الفرس، فإنهم لما ألقوا القبض على ملك الفرس أطلقه بعد أخذ الأمان من أحد جنود المسلمين، وسرد بعدها قصصاً كثيرة في هذا الباب. وذكر أخبار المتأخّرين أيضاً من أهل الأندلس والمغرب، واعتمد في ذلك على كتب السّير والتّراجم مثل كتاب (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) لابن أبي زرع الفاسي، و(الاكتفاء من أخبار الخلفاء) للكلاعيّ، وفي ذكر وفاء صلاح الدّين الأيوبي مع النّصارى اعتمد على (تاريخ بيت المقدس) لأبي القاسم المقدسيّ وغيرها.

نتائج البحث

- يُعدّ الأمير عبد القادر ظاهرةً فريدةً من نوعها في التّاريخ الإسلاميّ، وما الإشكالات التي أثّرت حوله إلّا دليلاً على ذلك، فكثرت الكتب والدّراسات والملتقيات التي تتناول شخصيته من كلّ الجوانب وفي كلّ الأماكن.

- كانت للأمير عبد القادر سجلات مشهودة ومواقف مشرّفة في مجابهة الغزو الفرنسيّ، واجه جيوشهم ومددهم الكبير بسيفه بأناة وجلد وشجاعة زينت صحائف كتب التّاريخ، كما واجه أباطيلهم وإشاعاتهم حول العرب والمسلمين، ولاشك أنّ هذه المواجهة الفكرية والروحية كانت أصعب وأخطر من المواجهة العسكرية، خاصّة وأنّ الفرنسيين كانوا قد بلغوا نضجاً فكرياً وحضارياً رائداً في القرن التّاسع عشر، فمواجهة الأمير الفكرية كانت لمنظومة فكرية فرنسيّة مكتملة بمؤسّساتها ونخبها.

- استمدّ الأمير في هذه المواجهة الفكرية فكره من التّراث العربيّ الإسلاميّ، ومن ثقافته ومرجعياته الدّينية، ولاحظنا أنّه يمكن أن نؤطر هذه المواجهة في جبهتين اثنتين؛ وهما:

1- الجانب الدّيني و العقائدي: وتمثّل في إبطال مزاعم النّصارى من الفرنسيين وغيرهم حول التّشكيك في دين الإسلام وتكذيب النّبوة وما إلى ذلك، واعتمد الأمير في إجاباته على هذه الاستشكالات على علم الكلام، وبالتّحديد على كتب أئمة السّادة الأشاعرة، كأبي المعالي الجويني، والسّعد التّفتازاني، والشّريف الجرجاني، والعضد الإيجي، وغيرهم.

2- الجانب الحضاريّ : وتمثّل في إبطال مزاعم هؤلاء حول أخلاق المسلمين، واتّهامهم بالتوّحّش والغلظة وما إلى ذلك، ومنها اتّهامهم بالكذب والخيانة ونقض العهود (وكانوا هم أخرى بهذه الأوصاف)، واتّخذوا من قضيّة المرأة مطيّةً للطّعن في قيم المسلمين وحضارتهم، فعزفوا مطوّلاً على هذا الوتر، واستعمل الأمير طرفاً عدّة لإبطال مزاعمهم ؛ منها :

أ- الطّبع : ردّ عليهم بالطّبع العامّ والدّوق الإنسانيّ المشترك، لأنّ الفرنسيّين لا يؤمنون بنصوص المسلمين، فألجأهم الأمير إلى الطّبع الإنسانيّ المشترك الذي لا يمكنهم إنكاره، ومنها ذكر طرفاً من أخبار العرب وأشعارهم في الجاهليّة والإسلام، التي تؤكّد عكس ما اعتقدوه.

ب- الفكر الخلدوني : استعمل الأمير نظريّة العمران لردّ مزاعم الفرنسيّين حول تخلف المسلمين، وهذا عند التّأصيل لضرورة الاجتماع وما يترتّب عليه من احتياج النّاس إلى بعضهم، ونشوء العلوم والصناعات وما إلى ذلك.

ج- الرّدّ بنصوص أهل الكتاب: استعمل الأمير في ردّه عليهم الكثير من النّصوص من الكتاب المقدّس (التّوراة والإنجيل) لإبطال مزاعمهم حول مكانة المرأة، وعقد مقارنة بين الأديان، وإثبات صدق النّبوة وعدالة رسالة الإسلام، وإثبات نبوّة نبيّنا محمّد -صلى الله عليه وسلّم-.

د- الرّدّ بنصوص القرآن والسّنّة وأقوال أئمّة المسلمين : استعمل الأمير كذلك بعض الآيات الكريمة والأحاديث النّبويّة الشّريفة في بيان نصوص شريعة الإسلام في القضايا التي استشكلوها، ويبيّن لهم بتلك النّصوص حتّى الإسلام على الأخلاق الفاضلة كالصدّق، والوفاء بالعهد، ونحوها، والتّحذير من أضدادها كالكذب، والخيانة، ونحوها. واحتجّ بأقوال العلماء المسلمين في ذلك خاصّة علماء الأشاعرة والمالكيّة، كالبيضاويّ، والغزاليّ، واللخميّ، وخليل بن إسحاق، وغيرهم.

هـ- دعوته للفرنسيّين والغرب عموماً إلى ترك الاغترار بما عندهم، مع أنّه يُشيد بتقدّمهم وإحرازهم قصب السبق في الصناعات والعلوم الدنيويّة، يدعوهم الأمير إلى وجوب الإيمان والإصغاء إليه، لبيّين لهم طريق الحقّ، وهذا بتصديقهم لرسالة الإسلام، حتّى يجتمع لهم خير الدّنيا والآخرة.

و- لم ينس الأمير حال المسلمين، وأتهم في الكثير من الأحيان كانوا سبب إحداد غيرهم، وأتهم فتحوا من أسباب الطّعن في دينهم ما لا يخفى، من خلال عدم التزامهم بتعاليم

الإسلام، وأنكر على بعضهم الاحتجاج بالأقوال الضعيفة التي لم تثبت في شريعة الإسلام، واعتقادهم بالخرافات وما إلى ذلك.

- تبرز لنا شخصية الأمير من خلال تتبّع تدرّجه الفكري والمنطقي في استدراج الخصم إلى ضرورة الإيمان بالإسلام، كما كان كثيرا ما يستدرجهم في معاركه الحربية إلى الهزيمة والاعتراف.

بيبليوغرافيا

الأمير عبد القادر بن محبي الدّين الجزائريّ (1972م). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. تحقيق وتقديم ممدوح حقي، القاهرة: مكتبة الخانجي.

الأمير عبد القادر بن محبي الدّين الجزائريّ (1989م). المقرض الحادّ لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد. الجزائر: دار الطّاسيلي للنّشر والتّوزيع.

الأمير عبد القادر بن محبي الدّين الجزائريّ (د. ت). ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. (د. ط). طبعة قديمة.

بشرى، خيريك (2012، كانون الثّاني/حزيران). دراسة لبعض مغالطات المصادر التّاريخية وتناقضاتها (تحفة الزّائر ومآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر) أنموذجا للدراسة، مجلة دراسات تاريخية، (117، 118)، دمشق.

خليل بن إسحاق الجندي المالكي (2007م). مختصر خليل. ضبطه وعلّق عليه ووضع ترقيمه: أحمد عليّ حرّكات، بيروت: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

شارل هنري، تشرشل (1982م). حياة الأمير عبد القادر. (ط. 2). (ترجمه وقدّم له وعلّق عليه أبو القاسم سعد الله)، الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.

شخصية الأمير عبد القادر من منظور الآخر. (كتاب عبد القادر لقوستاف دوقا، ت). أنموذجا، عبد القادر شرشار، مجلة إنسانيات، مركز البحث في الأنثروبولوجيا، وهران-الجزائر موقع: <http://insaniyat.revues.org/5976>

ابن خلدون، عبد الرّحمن (2004م). مقدّمة ابن خلدون. بيروت: مؤسّسة الكتاب العربيّ.

عبد الرّزاق، بن السّبع (2000م). الأمير عبد القادر الجزائريّ وأدبه. الكويت: مؤسّسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشّعريّ.

العربي، إسماعيل (1984م). الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش. وحدة الجزائر، وحدة الرغبة: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

عشراتي، سليمان (2011م). الأمير عبد القادر المفكر. الجزائر. (ط. 1). وهران-الجزائر: دار القدس العربي للنشر والتوزيع. صص. 202، 181.

عشراتي، سليمان (2011م). الأمير عبد القادر العرفاني. (ط. 1). وهران-الجزائر: دار القدس العربي للنشر والتوزيع.

لونيبي، راجح (1998م). الأمير عبد القادر فارس العقيدة والوطن. الجزائر- باب الواد: دار المعرفة.

محمد بن عبد القادر الجزائري (1964م). تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر. (ط. 2). شرح وتعليق ممدوح حقي، بيروت: دار البيضة العربية.